بسم الله الرحمن الرحيم

تقديروتصدير

التاريخ عرض الإنسانية

والعرض مناط الحمد والذم فى الإنسان

وكذلك التاريخ بالقياس إلى الإنسانية فى جملتها، لا يكون شيئًا إن لم يكن تقديراً لما هو صادق أو كاذب، أو ما هو صواب أو خطأ، وما هو حميد أو ذميم، من الحوادث والناس.

وقد نذكر الحوادث توسعًا فى التعبير، فإن الحوادث لا تعنينا لذاتها إن لم يكن معناها تقويمًا لأعمال وقيامًا بأعمال، أو لم يكن معناها فى صيغة أخرى تعريفًا بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه.

وكل شىء فى الحياة الإنسانية هين إذا هان الخلل فى موازين الإنسانية.

وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخلل إلى انعكاس الأحكام وانثلابها من النقيض إلى النقيض.

يهون كل شىء إذا هانت موازين الإنسانية، لأن موازين الإنسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال.

ومن هوان الموازين الإنسانية أن يختل كل هذا، فلا يوثق بحصول الإنسانية كافة فى تاريخها القديم والحديث.

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى ... بل تختل وتنعكس، فيوضع فيها الذم موضع الحمد، والكذب موضع الصدق، والخداع موضع الإخلاص والإيمان.

وقد هان عرض إنسان واحد يشتريه المال أو الغرض فى حياته، فماذا يقال فى عرض الإنسانية الذى يشترى فى الحياة بعد ذلك مدى الأجيال على صفحات التاريخ!

ذلك أفدح مصاب تصاب به الإنسانية: أنع مصاب فى عرضها، فى صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها. فى موازينها وحسب. وما من شىء يعتز به الإنسان لا يدخل فى هذه الموازين.

وأوجب واجب على الإنسان لضميره أن يحمى نفسه من شر هذا المصاب الفادح، وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ فى حاضره ومستقبله. فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث، ولكنه بلاء الزيغ فى البصر والبصيرة، وعلينا نحن أن نصحح البصر إذا زاغ لأنه نقص وعيب وإن لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل. وكذلك نصحح زيغ البصيرة لأنها نقص وعيب، أو لأنه تشويه فى سواء الخلقة، وإن لم يعجل منه الضرر ولم تذهب به المنفعة.

إن تاريخ الإنسانية من أوائلها إلى حواضرها لا يملك للعامليلن جزاء غير حسن التقدير وصدق القياس لما عملوه.

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء، لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب، فيملك - بهذه الرشوة الرخيصة - خير ما تؤتيه الإنسانية أحداً من أبنائها فى الحياة وبعد الممات.

***

على أن الموازين الإنسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة، ذهابًا مع الأجر العاجل والعطاء المعروف.

بل تصاب هذه الموازين من التهازين أو "الوصوليين" المطبوعين كما تصاب من التهازين المصنوعين أو المصطنعين.

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة، وإن لم يكن هو صاحب المنفعة لا حاضراً لها عند انتفاع المنتفعين بها.

من الناس من يحب ذلك لأنه يرجع إلى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة.

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع لأنه يتمنى أن ينجح على مثالهم ولا ينكر النجاح إذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم. ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء، لأنه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولا يقدر على التماس المعذرة لها فى نقيصيتها، أو فى طبيعتها التى لا فكاك منها.

وليس أبغض إلى الإنسان من احتقاره لنفسه.

وليس أحب إليه من اعتذاره لها عن حقارتها.

وأنك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطى على بصر الإنسان وتملك عليه هواء، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التى ينقاد لها ولا يتغى الشقاء منها.

إنه يتعصب فى كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفى عنه الاضطرار إلى الإقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه.

وإنه ليعترف بالجهل إذا استطاع أن يدعى لنفسه تعلة يسمو بها على أهل المعرفة.

وإنه لتعترف بالعجز إذا استطاع أن ينزل بالقادرين إلى "مستواه" بخديعة من خدائع النفوس.

وإنه ليتعرف بالرذيلة إذا استطاع أن يلوث الفضيلة التى يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة.

وإنه ليتشبث بهذه التعلات كما يتشبث الغريق أوهام النجاة، لأنه بغير هذه التعلات غريق فى شعور ثقيل على جميع النفوس، وهو الشعور بالهوان.

لهذا يتعصب النهارون المطبوعون على أصحاب المثل العيا، لأنهم بين اثنين: أما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا ويعملوا فى السر والعلانية عمل أصحابها، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة.

وأما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنون النجاح بأساليبه، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع وإن لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذوو القدرة من الناجحين الفعالين.

وقد عرفنا من هؤلاء أناسًا فى التاريخ كما عرفناهم فى الحياة الحاضرة.

عرفناهم فعرفنا عجبًا من العصبية العمياء التى تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين فى الحادث الواحد والحقبة الواحدة.

إذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين والآخر من المثاليين رأيت العجب فى المقياس الذى يلمسون به المعاذير لهذا وينكرونها على الآخر فى اللحظة الواحدة.

إذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحاباة ولده أو ذوى قرباه لم يعذلوه أو لم يعنفوه فى عذله، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها ويتجرى الوتيرة عليها.

وماذا فى هذا الصنيع عندهم مما يستغرب؟ أكان على الرجل أن ينسى ابنه ليفضل عليه مما يستغرب" أكان على الرجل أن ينسى ابنه ليفضل عليه الغرباء عنه؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل إنسان فى هذا المكان؟

يعذرون هنا بل لا يلومون، ولا ينفرون ممن يلومونه أن جاملوا "الظواهر" فلاموه.

أما خصمه المثالى فمعدود عليه أن يحابى نفسه فضلا عن محاباة ولده، ومعدود عليه أن يهبط من السموات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس فى نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال.

ولا حاجة إلى إمهان فى البحث للكشف عن خبيئة الطبيعة النهازة فى هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين.

إن الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين.

إنها تريد أن تعذر نفسها لتقول أن ذلك المثالى ناقص وأن هذا النفعى وإن هذا النفعى يجرى على العرف الشائع بين جميع الناس، ولهذا يتناول النهار الميزان وهو يتعمد أن يزيد فى ناحية من السيئات ويحط من الحسنات، ويتعمد فى الناحية الأخرى أن يقلب الكفة فيزيد على الحسنات ويحط من السيئات.

ويكفى أن ينسب إلى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العظيم المثالى، ثم يشعر بنوع من القرابة والألفة بينه وبين خصمه، فيميل إلى سماع الأحدوثة الحسنة عن هذا ولا يميل إلى سماعها عن ذاك، ويضطره إلى ذلك وقوفه بين طريقين: أحدهما غريب يصغره فى نظر نفسه، والآخر مألوف يطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخيلته.

نعم. يكفى أن ينسب إلى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهار إلى العظيم المثالى كما يستريح إلى النفعين الناجحين.

ونقول "عمل من الأعمال لا يقدر عليه ولا يسعى إليه" لأن هناك أناسًا لا يقدرون عمل العمل المثالى ولكنهم يسعون إليه أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم إليه وتمنيه وصبرهم على مشقة هذا السعى وهذه الأمنية.

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين.

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل فى المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم إلى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة، والأمثلة

من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون إلى ساحة التاريخ إلا شهوداً أو مستمعين.

فلو كانت محنة التاريخ كله من النهار المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل.

وإنما المحنة الشائعة من أولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها، ويجاهدون من يكشف هذا الزيف ويقومه بقيمته الصحيحة، ثم تكثر العملة الزائفة فى الأيدى حتى ليلوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر، ولا ينفع المحك الناقد فى هذه الحالة لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف.

***

وفى التاريخ الإسلامى مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التى يرتبط بها عرض الإنسانية، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها فى تواريخ الأمم، لأنها حاضرة الأخبار والروايات، حاضرة الأسباب والبواعث، ولا يحفى من شأنها غير النيات والزاعم، وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولا تتوارى خلفها الأسباب والبواعث بحجاب كثيف.

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان.

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التى اتفقت عليها جميع الأقوال.

وإذا لم يرجح من أخبار هذه الفترة إلا الخبر الراجح عن لعن "على" على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتى الميزان.

فإن الـذى يعلن لعن خصـمه على منابر المسـاجد لا يكف عن كـسب الحمد لنفسه فى كل مكان وبكل لسـان، ولم لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معـاوية كان يغدق الأمـوال على الأعوان ومن يرجى منهم الـعون لكان لعن خصـمه عـلى المنابر كافـيًا للإبانة عـما صنعـه لكسب الثناء عليـه وإسكات القادحيـن فيه، ولكن أخبار الأمـوال المبذولة لتغـيير الحقائق يف هـذه الفترة تفـيض بها كـتب المادحين ومن لا يمـدحون ولا يقـدحون، ولم يعلـم أحد مبلغها من الوفـر والجسامة، ولكنها معلومة بالتـقدير وأن لم تعلم بالإحصاء وأرقام الحسـاب، لأنها استنفدت خـزانة الدولة وجرت إلى مضاعـفة المكوس والضرائب ومخالفة للعهود لأهل الذمـة وحسبان الزكاة من حصة الخزانة التى يستولى عليها ولاة الأمور.

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعـد عمل النهازين المأجورين، فإنهم قد تطوعوا فى ذلك العـصر، وفى العصور التاليـة، لترجيح كفة الـنجاح المنتفع على كفة المثاليـة العالية، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كـما نشرحه الآن بأساليب علم النفس فى الزمن الأخير. فإن الأقدمين لم تفتهم "النفس" بجوهرها وإن فاتـتهم مصطلحات النفـسانيين من أبناء القرن العـشرين، وقد نفذوا إلى بواطنها بالنظرة الثابتة لأنهم أصحاب نفوس تلعم ما لم تنطوى عليه النفوس.

جاء فى تاريخ الخلفـاء للسيوطى عن الإمـام ابن حنبل أنه سأل أباه عن على ومعاوية فقـال: "اعلم أن عليًا كان كثير الأعداء، ففـتش له أعداؤه عيبًا فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيادًا منهم له".

وهذه دخيلة من دخـائل النفس الصغيـرة معهودة مـتكررة فى كل جيل وفى كل خصومة، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثنى عليه كما يصدر عن حقد على غيره، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب.

***

إن تاريخ معاوية بن أبى سفيان لا يحتاج إلى مزيد من تفصيل، وإنما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعًا إلى تصحيح الموازين وبيان المداخل التى تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأسًا على عقب. ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وإدراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة.

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول إذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود.

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره إذا أخذنا بظواهر الأقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الأهواء والبواعث الخفية، ولابد منها فى هذه المرحلة بذاتها: مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص.

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثًا جللا بالغ الخطر فى تاريخ الإسلام، وتاريخ العالم.

وما كان أحد ليطمع فى بقاء عصر الخلافة على سنه الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين، لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بنى الإنسان.

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذى يؤجل إلى زمن بعيد.

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين: كان فى الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكًا بارًا نفيًا مصونًا من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك فى عصوره الخالية.

وكان فى الوسع أن يسير على مشابه الملك فى العصور الخالية بذخًا ومتاعًا وزينة وخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين.

كان فى الوسع أن يبتدئ الملك فى تاريخ العالم على النهج الصديقى أو الفاروقى وأن لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح، وكان هذا النهج خليقًا أن يظل إمامًا للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحيمهم نكسة الأخلاق والآداب قرونًا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه فى أخطر الأمور.

كان فى الوسع هذا، وكان فى الوسع ذاك.

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هى الحادث الجلل فى صدور الإسلام، وهى الحادث الجلل الذى يقرر تبعتها فى التاريخ الإسلامى بل فى التاريخ العالمى كله.

ورأس الدولة الأموية، معاوية بن أبى سفيان، هو صاحب هذه التبعة التى يجب أن تتقرر بأمانتها العظمى فى ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة، وهى منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير، يشق عليها الصعود إلى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنة، ويطيب لها أن تسترسل على هيئة مع مألوفاتها فى كل يوم.

والصفحات التالية تتناول النظر فى سيرة معاوية من هذه الوجهة، فليست هى سردًا لتاريخه ولا سجلا لأعماله ولا معرضًا لحوادث عصره، ولكنها تقدير له وإنصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الإنسانية - كما يراها المجتهد فى طلبها وتمحيصها، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد فى البعد عنها وإخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموى إلى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون إلى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم، كأنهم صنائع الدولة فى إبان سلطانها وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة فى المطالب والمعاذير ولولا أننا نأبى أن نضرب

الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم فى هذا التاريخ كلامًا ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية فى الجاهلية، ومنهم من يحسب من همة معاوية أنه تصدى للخلافة مع على ويحسب من المآخذ على غيره أنهم تصدوا للخلافة مع يزيد، ومنهم من يشيد بفضل أبى سفيان على العرب لأنه كان تاجرًا يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم فى تجارته، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا فى أرواحهم وأعراضهم على أيدى المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لومًا لأولئك المسلطين، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدرى ما يصنعون غير ما صنعوه.

ولو أننا ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم فى طلب المنفعة والليذ بالقادرين عليها، وألوان من معاذيرهم التى يرتضونها لأنفسهم ويوجبون على الناس أن يرتضوها لهم أو يلتمسوها لهم، وإن لم يعلنوها.

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا فى غنى عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله، ونتحرى فى ذلك كله أن نصون التاريخ - نصون ذمة الإنسانية - أن يملكها من يملك الجاه والسلطان فى زمن من الأزمان:

***